مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (31) العدد (2)2009
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (31) No. (2) 2009

شروح تلخيص مفتاح العلوم
أهميتها في حركة تطور البلاغة العربية

الدكتور علي حيدر *

(تاريخ الإيداع 9 / 10 / 2008. قبل للنشر في 20 / 4 / 2009)

□ الملخّص □

كان كتاب السكاكي ((***مفتاح العلوم***))، ولاسيما الجزء الثالث منه ، بداية مرحلة جديدة في تطور البلاغة العربية ، فقد قسم السكاكي البلاغة إلى علوم ثلاثة : معانٍ وبيان وبديع، لكن أسلوبه المتأثر بالفلاسفة و المتكلمين وبمعجمهم اللفظي جعل كتابه صعب التناول ولاسيما للمتلقي العادي .

كان ((***تلخيص المفتاح***)) الذي قدمه القزويني هو البديل عن هذا الكتاب . فقد تخلص القزويني من أسلوب السكاكي المعقد ، وأعاد تنسيق أبوابه و فصوله، و اختصرها، و أضاف إليها فصولاً أخرى رآها ضرورية لعلم البلاغة .

نال هذا التلخيص شهرة لم يعرفها كتاب في بابه ، لذلك حاولنا تفسير سبب هذه الشهرة ، وسبب جعله هدفاً للشروح و التعليقات ، وعرضنا لأشهر شروح هذا التلخيص ولاسيما الشرح الذي قام به التفتازاني ، الذي أضحى، بدوره ، هدفاً للشرح و التعليق في العصر العثماني .

هذه السلسة من الشروح و الاختصارات و التعليقات كانت سمة الإنتاج الثقافي في العصرين المملوكي والعثماني ، وهي سمة تشير بوضوح إلى جمود الفكر أولاً و إلى جمود الثقافة العربية و الإسلامية ثانياً .

الكلمات المفتاحية : مفتاح العلوم – تلخيص المفتاح – شروح – جمود .

* أستاذ – قسم اللغة العربية – كلية الآداب – جامعة تشرين–اللاذقية –سورية.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (31) العدد (2)2009
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (31) No. (2) 2009

Les commentaires sur le résumé De ((Miftah al ulum)) (son importance pour la rhétorique arabe)

Dr. Ali Haydar*

(Déposé le 9 / 10 / 2008. Accepté 20 /4 /2009)

□ Résumé □

Dans cet essai nous traitons la troisème partie de l'œuvre de Sakkaki ((Miftqh al_ulum) et ses résumés ; surtout celui qui est fait par Qazwini .

Cet auteur réorganise les sujets traités par Sakkaki; les résumés et les expose clairement , loin du style philosophique du Sakkaki .

Nous essayons , aussi, d'expliquer les raisons pour lesquelles ce résumé devient le plus important et le plus célèbre dans le domaine de la rhétorique arabe si bien qu'il a été l'objet d'une vingtaine de commentaires et de résumés dont les plus célèbres ((Arus al_ Afrah)) de Subki et celui de Taftazani .

L'œuvre de ce dernier devient ,à son tour , l'objet de commentaires et de résumés. Cette chaine de commentaires et de résumés devient le signe marquant de la production culturelle de l'époque mamelouke, ce qui signifie l'ankylose totale de cette culture .

Mots clés : Miftah _ résumé _ commentaire _ Ankylose .

* **professeur à la Faculté des Lettres , Section Arabe , Université de Tichrine , Lattaquié, Syrie.**

مقدمة:

يتضمن كتاب ((***مفتاح العلوم***)) [1] لأبي يعقوب السكاكي [2] (ت 626ه) خمسة أقسام تناول الكاتب في القسم الأول ((***علم الصرف***)) ، و في القسم الثاني ((***علم النحو***)) ، وفي القسم الثالث ((***علم المعاني والبيان***))، أما القسم الرابع فهو ((***علم الاستدلال***))، وختم الكتاب بالقسم الخامس الذي تناول فيه ((***علم الشعر***)) .

ويسوغ السكاكي سبب اختياره لهذه العلوم دون سواها من علوم فيقول في مقدمة كتابه : ((وضمنت كتابي هذا من أنواع الأدب ، دون نوع اللغة ، مارأيته لابد منه ،وهي عدة أنواع متآخذة ، فأودعته علم الصرف بتمامه ، وأنه لايتم إلا بعلم الاشتقاق المتنوع إلى أنواعه الثلاثة ، وقد كشفت عنها القناع . و أوردت علم النحو بتمامه ، وتمامه بعلمي المعاني و البيان ، ولقد وفيت بتوفيق الله منهما الوطر . ولما كان تمام علم المعاني بعلمي الحد والاستدلال لم أر بداً من التسمح بهما . وحين كان التدرب في علمي المعاني والبيان موقوفاً على ممارسة باب النظم و باب النثر ، ورأيت صاحب النظم يفتقر إلى علمي العروض و القوافي ، ثنيت عنان القلم إلى إيرادهما....)) [3].

و على الرغم من استخدام المنطق في ترتيب هذه العلوم والاستفادة منها ، فإن أسلوب السكاكي المتأثر بالفلسفة والمنطق و علم الكلام قد حال ، على الأرجح ، دون انتشار هذا الكتاب بين الناس ، ويكفي أن نشير إلى شاهد يبين ذلك . يقول السكاكي : [4]

((والسبب في أن المجاز أبلغ من الحقيقة هو ما عرفت أن مبنى المجاز على الانتقال من الملزوم إلى اللازم، فأنت في قولك رعينا الغيث ، ذاكراً الملزوم ، النبت ، مريداً به لازمه ، بمنزلة الملزوم عن اللازم ، لأداء انفكاكه عنه ، إلى كون الشيء ملزوماً غير ملزوم باعتبار واحد، وفي قولك : رعينا الغيث ، مدع لشيء لا ببينه ، وكم بين ادعاء الشيء ببينة وبين ادعائه لا بها ....)) .

لكن السكاكي له فضل حسن الجمع و التبويب في كتابه هذا بعد أن كانت علوم البلاغة في فوضى لا يحكمها تنسيق ولا تبويب .

أهمية البحث وأهدافه:

تكمن أهمية هذا البحث في أنه يحاول فهم أسباب التحجر والجمود في الثقافة العربية عامة ، وفي علم البلاغة خاصة ، في العصرين لمملوكي والعثماني .

منهجية البحث:

اعتمد البحث على المنهج التكاملي ، وهو يعتمد ، غالباً ، على أسلوب العرض و التحليل والاستنتاج .

---

[1] نعتمد في هذا البحث على الطبعة الصادرة عن دار الكتب العلمية – بيروت بضبط نعيم زرزور .ط2 1407ه–1987م .

[2] ترجمته في مقدمة كتاب ((***المفتاح***)) .

[3] مفتاح العلوم ، 6 .

[4] المصدر السابق ، 412– 413 .

تلخيص المفتاح:

لعل أول تلخيص للجزء الثالث من ((***المفتاح***)) للسكاكي قام به بدر الدين بن مالك (ت686ه) وهو مغربي الأصل لكنه عاش في دمشق [5] . وقد حمل هذا التلخيص عنوان ((***المصباح في اختصار المفتاح***)) [6] .

لكن هذا التلخيص لم يحظ بشهرة واسعة في حينه ، ولاسيما بعد أن أشتهر التلخيص الثاني للفصل الثالث من ((المفتاح)) الذي قام به جلال الدين القزويني (ت 739 ه) [7]. فقد انصرف اهتمام أصحاب البلاغة والبديع إلى هذا التلخيص [8] شرحاً و تعليقاً و إعادة تلخيص إلى أن بلغت هذه الشروح و المختصرات و التعليقات واحداً وعشرين مما جعله أشهر كتب البلاغة حتى مطلع القرن العشرين [9] .

يصرح القزويني في مقدمة تلخيصه قائلاً [10]: ((.....وكان القسم الثالث من مفتاح العلوم الذي صنفه الفاضل العلامة أبو يعقوب يوسف السكاكي أعظم ما صنف فيه من الكتب المشهورة نفعاً ، لكونه أحسنها ترتيباً ، وأتمها تحريراً ، وأكثرها للأصول جمعاً .....)) .

ويبدو أن القزويني أعجب بما قام به السكاكي لأنه جعل علوم البلاغة قسمين أساسيين هما علم المعاني ، وعلم البيان ونسق هذين العلمين، وفصل عنهما ماليس منهما ،وقصر مصطلح ((***البديع***)) على الأنواع التي تحسّنُ الكلام بعد أن يكون قد استوفى شروط البلاغة والفصاحة وهو مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته .

لكن هذا الترتيب والتنسيق كان يحتاج إلى زيادة في الترتيب و التنسيق ، فأشار القزويني إلى ذلك قائلاً :[11]

((ورتبته ترتيباً أقرب تناولاً من ترتيبه ن ولم أبالغ في اختصار لفظه .....)).

يبدأ القزويني من حيث انتهى السكاكي بتعريف الفصاحة والبلاغة [12] ، ثم يقسم البلاغة إلى ثلاثة فنون، الفن الأول علم المعاني ، والثاني علم البيان ، والثالث البديع .

في الفن الأول ((***علم المعاني***)) يعتمد القزويني تعريف السكاكي لهذا العلم ، ثم يعرض فصلاً بعنوان ((***صدق الخبر و كذبه***)) ثم يتناول أحوال المسند إليه ثم أحوال المسند . يلي ذلك ((***أحوال متعلقات الفعل***)) [13].

وهذا كله تلخيص للقانون الأول عند السكاكي وهو بعنوان ((***فيما يتعلق بالخبر***)) [14] .

---

[5] ترجمته ، ***شذرات الذهب***، 5/ 398 – 399 . وهناك اختصارات أخرى للمفتاح ، يرجع إلى الإيضاح ، 9/1 .

[6] ذكره صاحب شذرات الذهب بهذا العنوان . وقد طبع في القاهرة ، بعنوان ((***المصباح في علم المعاني والبيان و البديع***)) – المطبعة الخيرية ، 1341ه .

[7] ترجمته: ***شذرات الذهب*** ، 123/6 . ***ومقدمة الإيضاح*** ، 1/ 14 –15 .

[8] نعتمد في هذا البحث على الطبعة التي صدرت بعنوان ((***التلخيص في علوم البلاغة***)) التي ضبطها وشرحها عبد الرحمن البرقوقي ، والتي أصدرتها المكتبة التجارية الكبرى بمصر . الطبعة الثانية 1932.

[9] الركابي ، جودت . الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار ، 131 . ومن الذين شرحوا التلخيص : الخلخالي ت 745 ه ، وناظر الجيش ت 778 ه ، و البابرتي ت 786 ه ، وشمس الدين القونوي ت 788 ه ، والتيزيني ت 793 ه ، والسيد عبد الله ت 800 ه ، وعصام الدين ت 951 ه ، ***الإيضاح*** 1/ 12 .

[10] التلخيص ، 22 .

[11] المصدر السابق ، 23 .

[12] المصدر السابق ، 24 – 37 ، المفتاح : 415 – 416 .

[13] التلخيص ، 40 – 136 .

[14] المفتاح ، 166 – 302 .

وقد أعاد القزويني ترتيب ماجاء عند السكاكي في هذا الفن ، فقدم ((***القصر***)) [15] ، وجعل القانون الثاني من علم المعاني عند السكاكي وهو ((***قانون الطلب***)) [16] ، فقرة بعنوان ((***الإنشاء***)) [17] . ثم تناول ((***أصل الحال***)) وختم هذا الفن ب((***الإيجاز والإطناب و المساواة***)) [18] . وقد ورد هذا عند السكاكي في منتصف موضوعات علم المعاني [19] .

أما الفن الثاني ((***علم البيان***)) فهو تلخيص للفصل الثاني عند السكاكي وهو ((***في علم البيان***)) [20]. وفيه اتبع القزويني خطا السكاكي ، فبدأ بالتشبيه ثم تناول الحقيقة و المجاز ثم الاستعارة ، فالمجاز (المرسل والعقلي) وختم هذا الفن بالكناية [21] .

وقد استخدم الشواهد نفسها التي جاء بها السكاكي ، كما اعتمد تقسيماته في التشبيه والكناية والمجاز ، إلا أن القزويني كان يشير إلى انفراد السكاكي في بعض الأمور ولاسيما في تعريفه للحقيقة والمجاز و الاستعارة وفي تقسيماته لنوع الاستعارة تحديداً [22] .

الفن الثالث ((***البديع***)) يبدو اهتمام الطرفين به مختلفاً ، فقد جعله السكاكي من الزوائد لأنه لا يؤثر في فصاحة الكلام أو بلاغته فقال عن أنواعه [23] ((***هي مخصوصة كثيراً ما يصار إليها لقصد تحسين الكلام***)). لذلك اختار منها الأعرف ولم يدخل في تفصيل أنواعها .

أما القزويني فقد جعل من البديع عمدة البلاغة ، فهو القسم الثالث الذي به يتم رسم المثلث البلاغي [24] ، وهذا يشير إلى تطور الاهتمام بهذا الفن بعد السكاكي وابن الأثير الجزري (ت637 ه) [25] .

ذكر السكاكي ثمانية عشر نوعاً من البديع المعنوي ، منها ***المقابلة والمطابقة*** ثم تقسيمه المعهود ***الجمع وعكسه التفريق و التقسيم*** . ثم جعل الجمع رأساً فصار عنده ثلاثة أنواع أخرى و هي : ***الجمع مع التفريق*** ، ***والجمع و التقسيم*** ثم ***الجمع مع التقسيم و التفريق*** . وهذا تقسيم تظهر فيه تأثيرات الفلسفة و المنطق . وذكر السكاكي خمسة أنواع من البديع اللفظي وهي : ***التجنيس*** ، ***ورد العجز إلى الصدر*** ، و ***القلب*** ، و***الأسجاع*** ، و***الترصيع*** [26] .

أما القزويني فذكر سبعة وثلاثين نوعاً من البديع المعنوي ضمنها معظم ما جاء به السكاكي [27] .

---

[15] التلخيص ، 137 .

[16] المفتاح ، 302 .

[17] التلخيص ، 151 .

[18] المصدر السابق ، 196 ، 209 .

[19] المفتاح ، 248 .

[20] المصدر السابق ، 332 .

[21] التلخيص ، 235 .

[22] المصدر السابق ، 328 – 334 .

[23] المفتاح ، 423 .

[24] التلخيص ، 347 – 407 .

[25] هو صاحب كتاب ((***المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر***)) . ترجمته في وفيات الأعيان ، 5/389– 397.

[26] المفتاح ، 423 – 429 .

[27] ترك ((***الاعتراض***)) لأنه ذكره في ***الإطناب*** ، ***والالتفات*** لأنه ذكره في تأخير المسند إليه ، أي أن القزويني جعلهما في علم المعاني (التلخيص ، 230 – 231 ، 95 – 100) . وترك ما سماه السكاكي ((***تقليل اللفظ ولا تقليله***)).

وسبعة أنواع من البديع اللفظي ، أربعة جاء بها السكاكي ، تاركاً ***الترصيع*** ، ومضيفاً ***الموازنة و التشريع ولزوم ما لا يلزم*** [28] .

ولعل من أهم ما نرى من اختلافات بين السكاكي و القزويني هو في نوع ((***التجنيس***)) [29] ، فقد اتفق الطرفان في أن ***الجناس*** هو تشابه في اللفظ دون التصريح بوجوب اختلاف المعنى ، وكذلك في ***الملحق بالجناس.*** لكن الاختلاف البين كان في تقسيمات الجناس و أنواعه ولا سيما في الجناس التام والجناس الناقص [30] ، فنحن نجد شواهد متماثلة لكن بتسميات مختلفة ، وكأن القزويني جاء بالتسميات التي شاعت بعد عصر السكاكي .

زاد القزويني على ما جاء في ((***المفتاح***)) فصلاً تناول ***السرقات الشعرية***[31] وأنواعها ، ويبدو أنه قد أخذ مادة السرقات عن ابن الأثير الجزري الذي ختم بها كتابه ((***المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر***)) [32] لكن في طريقة تقديمه لها كان تأثره واضحاً بأسلوب السكاكي في التقسيم والتفريع على طريقة أهل المنطق والكلام . كذلك ألحق بالسرقات الشعرية أنواعاً خمسة عدها البلاغيون من البديع ، وهي ***الاقتباس والتضمين والحل والعقد والإشارة*** [33] . وهو محق في ذلك لإن مضمون هذه الأنواع يعني الأخذ من نصوص الآخرين وهو نوع من ((***التناص***)) أو السرقة الشعرية .

وقد ختم القزويني كتابه بالقول : إن على الأديب أن يتأنق في ثلاثة مواضع وهي ***الابتداء ، وحسن التخلص من غرض إلى آخر ، والانتهاء أو حسن الختام*** [34] وهو أيضاً قد أخذها ، على الأرجح ، من أركان الكتابة التي ذكرها ابن الأثير [35] .

هكذا نجد أن القزويني لم يقتصر على تلخيص ((***المفتاح***)) بل أضاف إليه فصولاً و اختصر أخرى ، كما أنه استعان بأقوال علماء البلاغة الآخرين ، ولا سيما الجرجاني الذي استعان به كثيراً ، وقارن آراء السكاكي بآراء الجرجاني واتخذ من ذلك موقفاً [36] .

وكان يذكر رأي السكاكي إذا كان مخالفاً للآخرين كأن يقول ((***وقال السكاكي***)) [37] .

لكن أسلوبه في التبويب والتنسيق كان متأثراً بأسلوب السكاكي ، وقد استخدم أيضاً معجماً لفظياً قريباً من معجمه كقوله في تصنيف الجملة : الجملة الموجبة المهملة ، والجملة المعدولة ، والجملة السالبة الجزئية ، وغير ذلك [38] ، كذلك قوله في الكيفيات : الكيفيات الجسمية و الكيفيات العقلية ، والكيفيات النفسانية [39] .

---

[28] التلخيص ، 404 – 407 .

[29] التلخيص ،388 ، المفتاح ، 429 .

[30] الجناس التام عند السكاكي هو نوع واحد تكون فيه صورة اللفظ واحدة ، بينما جعله القزويني أنواعاً ثلاثة وهي : تام مماثل ، وتام مستوفى ، وجناس تركيب . بينما الجناس الناقص عند السكاكي هو المحرّف عند القزويني ، وهناك اختلافات كثيرة واضحة .

[31] التلخيص ، 408–428 .

[32] المثل السائر ، 3 / 218 –292 .

[33] الاقتباس من القرآن والحديث ، والتضمين ***كالاقتباس*** لكنه من غير القرآن والحديث ، والحل هو نثر بيت من الشعر ضمن النص ، والعقد عكسه أن تنظم قولاً منثوراً . أما الإشارة فهو نوع من الكناية ، بأن تشير إلى حادثة أو قصة معلومة . التلخيص ، 422 – 427 .

[34] التلخيص ، 429 – 435 .

[35] يرجع إلى أركان الكتابة في ((***المثل السائر***)) ، 1 / 121 – 125 .

[36] على سبيل المثال يرجع إلى ((***التلخيص***)) ، 84 ، 86 ، 143 – 144 .

[37] المصدر السابق وعلى سبيل المثال ، 94 ، 127 ، 143 .

شروح التلخيص:

بعد أن أصبح ((***التلخيص***)) بين أيدي الناس و لاقى شهرةً ورواجاً ، شعر صاحبه أن فيه شيئاً من الصعوبة تواجه المتلقي من غير المتعمقين في علم البلاغة ، وجرياً على عادة الأدباء في العصرين المملوكي والعثماني قام القزويني بشرح ما اختصره من قبل . يقول في في مقدمة كتابه ((***الإيضاح***)) [40] : ((أما بعد ، فهذا كتاب في علم البلاغة وتوابعها ترجمته((***بالإيضاح***)) ، وجعلته على ترتيب مختصري الذي سميته ((***تلخيص المفتاح***)) وبسطت فيه القول ليكون كالشرح له فأوضحت مواضعه المشكلة ، وفصلت معانيه المجملة ، وعمدت إلى ما خلا عنه المختصر مما تضمنه مفتاح العلوم ، وإلى ما خلا عنه المفتاح من كلام الشيخ الإمام عبد القاهر الجرجاني رحمه الله في كتابيه ***دلائل الإعجاز*** و ***أسرار البلاغة*** ، وإلى ماتيسر النظر فيه من كلام غيرهما .....

وأضفت إلى ذلك ما أدى إليه فكري ، و لم أجده لغيري فجاء – بحمد الله – جامعاً لأشتات هذا العلم .....)).

لكن هذا ((***الإيضاح***)) لم يؤثر في نجاح ((***التلخيص***)) الذي ظل هدفاً للشراح والمختصرين والمعلقين ، ومحط أنظار أصحاب البلاغة حتى مطلع القرن العشرين .

قد يكون سر نجاح ((***التلخيص***)) أنه مثّل للمهتمين بعلم البلاغة تحدياً جعل شرحه أو التعليق عليه إنجازاً كبيراً . وقد يكون الإعجاب به نابعاً من كونه أكثر كتب البلاغة تنسيقاً وتبويباً ، وأكثرها تمثيلاً لآراء أهل المشرق كالجرجاني والسكاكي في علوم البلاغة . قد يفسر هذا أن أهم شروح التلخيص جاءت من أهل المشرق ، والقزويني يعد منهم لأنه ، وإن كان عربي الأصل والانتماء ، فقد أنه عاش في بلادهم ، وتطبع بطباعهم ، وتأثر بأسلوب تفكيرهم .

أشهر شروح ((***التلخيص***)) ، وربما أولها ، قام به سعد الدين التفتازاني (ت 791 ه) [41] أشهر علماء الكلام في عصره ، وقد اقتصرت أعماله على الشروح ، [42] ومنها شرحه لكتاب القزويني ((***تلخيص المفتاح***)) ، ويشير التفتازاني إلى هذا الشرح قائلاً [43] : ((قد كنت شرحت فيما مضى تلخيص المفتاح ، و أغنيته بالإصباح عن المصباح .....)) هذا الشرح الذي قام بها التفتازاني لم يقتصر على تلخيص القزويني ((***للمفتاح***)) بل أضاف إليه شيئاً من تلخيص ابن مالك للمفتاح نفسه .

---

[38] المصدر السابق ، 84 – 85 .

[39] المصدر السابق ، 250 – 251 .

[40] الإيضاح : 1 / 16 .

[41] ولد في خرسان وعاش في هرات وسرخس و سمرقند ، تتلمذ على عضد الدين عبد الرحمن الإيجي (ت 753 ه) المتكلم المشهور ، وصاحب كتابي ((***المواقف***)) ، و ((***الجواهر***)) في علم الكلام . ترجمته ، شذرات الذهب ،7 م 319 – 321 ، الموسوعة الإسلامية بالفرنسية ط2 4 / 634 – 637 .

[42] من أشهر كتبه ((***المقاصد***)) وهو شرح لكتابي أستاذه ((***المواقف***)) و ((***الجواهر***)) في علم الكلام . وله أيضاً كتاب ((***شرح العقائد***)) و ((***مفتاح الفقه***)) .

[43] شروح التلخيص ، 1 / 13 .

لكن وعلى عادة الأدباء في العصر المملوكي ، فقد قام التفتازاني بتلخيص شرحه ((***التلخيص***)) لما وجد طالبوه من غموض وصعوبات في التلقي ، ولاسيما بعد أن تقاصرت همم القراء ونضبت مواهبهم [44] .

الشرح الثاني ((***للتلخيص***)) جاء على يد بهاء الدين السبكي ، وهو من أسرة شافعية عريقة كانت تحمل في عصرها لواء الدفاع عن الأشعرية، مما يسمح بالقول : إن هذا الشارح لم يكن بعيداً في فكره عن أهل المشرق أيضاً [45].

قام السبكي بشرح ((***تلخيص المفتاح***)) في كتاب وسمه ب ((***عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح***)) وهو يشرح للمتلقي في مقدمته لهذا الكتاب دوافعه للقيام بمثل هذا العمل يقول [46] : ((أما بعد ، فإن تلخيص المفتاح في علم البلاغة وتوابعها ، بإجماع من وقف عليه ، واتفاق من صرف العناية إليه ، أنفع كتاب في هذا العلم صنف ، وأجمع مختصر فيه على مقدار حجمه ألف .....)) .

وهويفسر سبب احتكار أهل المشرق لعلم البلاغة ، قائلاً: إن العرب قد استغنوا عن مثل هذه الدراسات لأن الله طبعهم على الذوق السليم و الفهم المستقيم ، فلم يكونوا يحتاجون إلى علم البلاغة ، لذلك صرفوا اهتمامهم إلى علوم أخرى هي مادة علم البيان كاللغة والنحو والفقه والحديث وتفسير القرآن .

أما أهل المشرق فقد برعوا في العلوم ولاسيما العلوم العقلية والمنطق ، فكرسوا جهودهم لعلم البلاغة و بلغوا الذروة فيه بصدور كتاب ((***مفتاح العلوم***)) . لكن اندثرت ، بعد ذلك ، معالم هذا الفن ، وانقطع عن الخوض فيه أهل المشرق بعد غياب أعلامه كالجرجاني والسكاكي [47].

وينتقد السبكي ما وصل إليه من شروح ((***تلخيص المفتاح***)) من بلاد المشرق ، ويرى أنها غير جديرة بالاهتمام لأنها [48] : ((لا تنشرح لبعضها الصدور الضيقة ، ولا تنفتح عندها مغلقة ، ولاينقدح فيها زناد الفكر عن مسألة محققة. يتناولون المعنى الواحد بالطرق المختلفة ، ويتناوبون المشكل و الواضح على أسلوب واحد ، كلهم قد ألفه،لا يخالف المتأخر منهم المتقدم إلا بتغيير العبارة .....قصارى أحدهم أن يعزو أبياتاً من الشواهد لقائلها ، ويوسع الدائرة بمالا يقام له وزن من تكميل ناقصها ، و إنشاء ماقبلها وما يليها ، وينشر للراغب مفردات الألفاظ من واضح كلام العرب .....)) .

ويتهم السبكي هؤلاء الشراح بالجهل في فنون العرب في القول مما ينتج عنه تشويه المعاني و إشكال القضايا. يقول [49] : ((..... فكم من معضلة في الكتاب يمرون عليها وهم عن حلاوة حلها معرضون ، ومشكلة يصححون ألفاظها وهم للمعاني ممرضون ....)) .

وإذا كان السبكي يتهم هؤلاء الشروح بتراجع مهارتهم اللغوية و بعجزهم عن تذوق العربية ، فهذا أمر كان معروفاً في عصره ، فهؤلاء كانوا في حالة انفصال تام عن الوسط الثقافي في مصر والشام يعيشون في بلادهم منذ

---

[44] المصدر السابق ، 1 / 23 .

[45] هو الابن البكر لتقي الدين السبكي حامل لواء الأشعرية في عصره ، وشقيق تاج الدين السبكي صاحب كتاب ((***طبقات الشافعية***)) و((***جمع الجوامع***)) وغيرهما من الكتب ، ترجمته ، حسن المحاضرة ، 1 / 204 ، شذرات الذهب ، 6 / 226 – 227 ، و محمد الصادق حسين ، البيت السبكي ، القاهرة 1948 .

[46] شروح التلخيص ، 1 / 4 .

[47] المصدر السابق ، 1 / 5 .

[48] شروح التلخيص ، 1 /6 .

[49] المصدر السابق ، 1 / 7 .

زوال الخلافة في بغداد ، يتنقلون قليلاً ، ويزورون المدن العربية ليأخذوا عن بعض شيوخها ، لكنهم ، في النهاية ، يعودون إلى بلادهم حيث تسيطر اللغة الفارسية و اللغة التركية على حياتهم اليومية . وتراجع الذوق اللغوي والأدبي شمل أيضاً أهل العربية أنفسهم لأنهم خضعوا لظروف مماثلة .

قد يكون كلام السبكي هذا تعريضاً بشرح التفتازاني للتلخيص ، لأنه أشهر شرح وصل من المشرق ويبدو أنه وقع في يد السبكي وكان دافعه لتأليف شرحه الخاص به [50] . وهناك دافع آخر لتأليف كتاب السبكي وهويشير إليه ، وهودافع إقليمي بحت . فإذا كان كتاب ((المفتاح)) قد جاء من بلاد المشرق ، و كتاب ((المصباح)) قد جاء من الغرب على الرغم من أن صاحبه ابن مالك مغربي الأصل لكنه أقام في دمشق ، فإن السبكي أراد أن يؤلف كتاباً يوازيهما في شهرتهما يكون مصرياً خالصاً . يقول عن كتابه [51] : ((..... ويكون واسطة بين مفتاح المشرق ومصباح المغرب خلياً من العصبية ، حرياً بالنسبة إلى مصر فإنها بقعة من عند الله مباركة طيبة لا شرقية ولا غربية .....)) .

تلخيص شرح التلخيص:

إذا كان السبكي قد عرّض بشروح ((***تلخيص المفتاح***)) للقزويني الواردة إليه من بلاد المشرق فإن التفتازاني نفسه يعترف بأن هذا الشرح قد ناله المسخ ، وامتدت إليه الأيدي و العقول بالتشويه [52] ، فطلب إليه إن يقوم باختصار شرحه من جديد ، ففعل ذلك [53] .

ويبدو أن هذا ((***التلخيص***)) قد حل محل تلخيص القزويني للمفتاح في العصر العثماني ، وحظي بالشروح و التعليقات ، ومن أشهر هذه الشروح ((***مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح***)) لأبي يعقوب المغربي [54] .

وهذا الشرح ليس شرحاً لتلخيص القزويني ، بل هو شرح لتلخيص التفتازاني لشرحه لتلخيص القزويني . وهذا الشرح يمثل نموذجاً للركود الفكري و الثقافي في العصر العثماني ، لأنه يتبع طريقة الشرح اللغوي ، فمثلاً يقول السعد في مقدمة تلخيصه : ((نحمدك يا من شرح صدورنا لتلخيص البيان)) .

يقول المغربي : ((نحمدك)) أي نصفك بالوصف الجميل الذي أنت أهله .

((يامن)) :المشهور جواز الإطلاق لمن كما يشهد به قوله تعالى ((أفمن يخلق كمن لا يخلق ....)) [55] .

((شرح)) : أي فتح .

((صدورنا)) : أي قلوبنا .....[56] .

ومن الواضح أن هذا الشرح هو شرح لغوي بسيط لا يخوض في صميم الموضوع ، وهو نوع من تفسير الماء بعد الجهد بالماء .

---

[50] انتهى التفتازاني من شرحه ل((***تلخيص المفتاح***)) عام 748 ه .

[51] شروح التلخيص ، 1 / 8 . وقد انتهى السبكي من وضع شرحه هذا عام 758 ه ، الإيضاح ، 1 / 10 .

[52] شروح التلخيص ، 1 / 15 – 17 .

[53] المصدر السابق ، 1 / 23 .

[54] لم نجد له ترجمةً لكنه انتهى من شرحه هذا عام 1108 ه في مكناسة . الإيضاح ، 1 / 10 .

[55] النمل ، 17 .

[56] شروح المختصر ، 1 / 7 – 8 .

وهناك أيضاً حواشٍ على هذا التلخيص الذي قام به التفتازاني ، كتبها محمد بن عرفة الدسوقي [57] . وهو يعترف بأنه ليس من فرسان هذا الميدان أي ميدان البيان ، لكنه قام بجمعها وتنسيقها بعد أن أخذها من تقارير مشايخه المحققين ، واستفاد كذلك من زبدة أرباب الحواشي و الشارحين ، وهو لايهدف من عمله سوى نيل رضى الله ، ودعاء من يستفيد من عمله .

يبدأ الدسوقي عمله بدراسة جملة ((بسم الله الرحمن الرحيم)) [58] وفق علم المعاني وعلم البيان وعلم البديع. وهذا الشرح شرح مطول يتسم بالتكلف والتعقيد : و يمتد على هامش خمس صفحات ، ثم يبدأ بشرح قول السعد التفتازاني (نحمدك) ، ((أي نصفك بالجميل الذي أنت أهله لأن الحمد الثناء بالجميل)) . ثم يخوض في المعنى الديني للحمد والشكر ، لينتقل بعد ذلك ليفسر استخدام التفتازاني الفعل المضارع (نحمدك) بدل الماضي أو الاسم ودلالة ذلك . ثم يعرض لنوع هذه الجملة من حيث الخبر والإنشاء ، ويفسر سبب استخدام (ك) كاف الخطاب بصيغة المفرد ، وغير ذلك من فنون بلاغية ولغوية [59] . أما قوله (يامن) فإن الدسوقي ينصرف إلى تفسير سبب استخدام التفتازاني ل(يا) النداء وهي – كما يقول – لنداء البعيد ، مع أن الله أقرب إلينا من حبل الوريد [60] .

ثم تبدأ حماسة الدسوقي للشرح البلاغي و النحوي بالخمود والتراجع إلى أن يصل الأمر به إلى الاكتفاء بالشرح اللغوي كأسلافه . من ذلك : ((قوله شرح صدورنا)) : الشرح في الأصل الفتح ، والتلخيص : تلخيص الكلام أي الإتيان به خالصاً من الحشو و التطويل)) [61] .

ويستمر الدسوقي على هذا النحو ، يشير إلى ملاحظات بيانية و بلاغية عندما يجد لذلك سبيلاً ، لكنه لا يطيل كما أطال في قراءة ((بسم الله الرحمن الرحيم)) و ((نحمدك)) وكأنه أفرغ كل طاقته البلاغية في ذلك أو أنه أعطى مثالاً عن الشرح البياني و اللغوي المفصل مكتفياً بذلك .

عودة تلخيص المفتاح:

لعل آخر شروح تلخيص المفتاح هو الشرح الذي قدمه الأديب عبد الرحمن البرقوقي في مطلع القرن العشرين مصدراً بتقريظ من الشيخ محمد عبده [62] .

تصرف البرقوقي بعنوان الكتاب الأصلي فجعله ((***التلخيص في علوم البلاغة***)) بدلاً من أن يكون ((***شرح تلخيص المفتاح***)) .

وقد صدّر البرقوقي الكتاب بمقدمة أوجز فيها تطور علوم البلاغة ، وأوضح سبب قيامه بهذا الشرح ، وهو أن ((***التلخيص***)) فيه ما فيه من غموض يجعل أمر تناوله صعباً على الطلاب ، وهي حجة كررها أصحاب الشروح جميعاً [63] .

---

[57] لم نجد له ترجمةً لكنه انتهى من عمله هذا في شوال 1210 ه ، الإيضاح ، 1 / 10 .

[58] شروح التلخيص ، 28 – 6 .

[59] شروح التلخيص ، 1 / 7 – 8 .

[60] ياء النداء هي أم أدوات النداء و هي لنداء القريب والبعيد .

[61] شروح التلخيص ، 1 / 8 .

[62] صدر طبعته الأولى عام 1904 م ، وصدرت الطبعة الثانية عام 1932 م .

[63] التلخيص ، 5 – 6 .

و أسهب البرقوقي في تلك المقدمة في عرض مسألة إعجاز القرآن ، ومفهوم الفصاحة و البلاغة ، و عرض جهود الجرجاني و جهود المتأخرين كالسكاكي و ابن الأثير و القزويني في ميدان البلاغة ، وختمها بسرد لما رآه أصحاب الاختصاص في موضوع إعجاز القرآن [64] .

لم يختلف أسلوب البرقوقي في شرحه ل ((***تلخيص المفتاح***)) عن أسلوب أسلافه ، إذ حاول إيضاح الغامض و المشكل من عباراته ، وشرح ما هو مختصر ، لكنه اقتصر في ذلك على الأمور التي تخص البلاغة تحديداً ، كشرح مفهوم الفصاحة ، وتنافر الحروف ، والغرابة [65] . أما ماعدا ذلك فهو أكمل الشطر الناقص من البيت ، ونسبه إلى صاحبه ، وأضاف شواهد و أمثلة جديدة تناسب ما يشرحه ، وشرح ما فيها من ألفاظ رآها غريبة.

أخيراً كان أسلوب البرقوقي خالياً من التكلف و السجع ، مرسلاً ، ولا غرابة في ذلك فهو من كتاب عصر النهضة الذين أدركوا أهمية الابتعاد عن التكلف و الصنعة .

الاستنتاجات والتوصيات:

كان كتاب ((***مفتاح العلوم***)) ولا سيما القسم الثالث منه ، بداية مرحلة جديدة في البلاغة العربية ، إذ قسمها السكاكي إلى علمين اثنين : علم المعاني و علم البيان ، وألحق بهما فن البديع ، لكن أسلوب المؤلف الذي اتسم بتعقيد الفلاسفة و المتكلمين صرف المتلقي العادي عنه . ثم جاء القزويني يتلخيصه للجزء الثالث من هذا الكتاب ، فنقل البلاغة خطوة أخرى و جعلها سهلة التناول بعد أن أعاد تنسيق الأبواب الواردة عند السكاكي واختصرها و أضاف إليها ما يكملها ، فلقي هذا التلخيص شهرة واسعة حاولنا تفسير سببها .

ثم قام آخرون بشروح و تعليقات على ((***تلخيص المفتاح***)) ، وتحول الشرح و الاختصار لهذا ((***التلخيص***)) عند سعد الدين التفتازاني ، إلى هدف للشراح في العصر العثماني ، وهكذا نجد أن الشروح والمختصرات قد أضحت دائرة مفرغة لا يعرف طرفاها وهي عبارة عن تكرار وتكرار لا تضيف جديداً ولا تسهم في تطور ثقافة أو معرفة ، فكان هذا النوع من الإنتاج الأدبي أكبر برهان على جمود الفكر أولاً وجمود الثقافة العربية و الإسلامية ثانياً .

---

[64] المصدر السابق ، 11 – 17 .

[65] المصدر السابق ، 24 – 25 .

المراجع:

1- السكاكي ، يوسف . *مفتاح العلوم* ، الطبعة الثانية – دار الكتب العلمية ، بيروت 1407 ه. 1987م ، 602.

2- ابن العماد ، عبد الحي . *شذرات الذهب في أخبار من ذهب* ، المكتبة التجارية للطباعة و النشر والتوزيع، بيروت ، بلا تاريخ .

3- ابن مالك ، بدر الدين . *المصباح في علم المعاني والبيان والبديع* ، المطبعة الخيرية ، القاهرة ، 1341ه

4- القزويني ، جلال الدين . *الإيضاح في علوم البلاغة* ، دار الجيل ، بيروت ، بلا تاريخ ، الجزء الأول ، 189 .

5- القزويني ، جلال الدين . *التلخيص في علوم البلاغة* ، الطبعة الثانية – المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ، 1932 م ، 439 .

6- الركابي ، جودت . *الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار* ، دار الفكر ، دمشق ، 1402 ه – 1982م 342 .

7- ابن خلكان ، أحمد . *وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان* ، دار صادر ، بيروت ، بلا تاريخ .

8- ابن الأثير ، ضياء الدين . *المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر* ، الطبعة الأولى ، مطبعة نهضة مصر، مصر ، 1379 – 1959 .

9- *الموسوعة الإسلامية* ، الطبعة الثانية ، ليدن . قيد الإصدار .

10- *شروح التلخيص* ، مطبعة عيسى البابي الحلبي و شركاه ، مصر ، بلا تاريخ .

11- السيوطي ، جلال الدين ، *حسن المحاضرة في أخبار مصر و القاهرة* ، مطبعة الموسوعات ، القاهرة ، بلا تاريخ .